النوازل الفقهية والعلوم الإنسانية
"علم التاريخ مثالا"

د. أحمد السعيدي
باحث في المخطوطات والتاريخ
دكتوراه من كلية الآداب – تطوان
تارودانت – المملكة المغربية
Saidy9@gmail.com

توطئة:

سنحاول في هذا المقال تبريز أهمية نصوص النوازل في العلوم الإنسانية وأهميتها للتاريخ خاصة (التاريخ الديني والاجتماعي والاقتصادي وتاريخ العقليات..). كما سنضرب الأمثلة على ذلك من بعض المتون المخطوطة والمطبوعة. وغايتنا لفت الانتباه إلى أهمية هذه النصوص للباحث المعاصر في العلوم الإنسانية، منبّهين في الوقت نفسه إلى ضرورة خروجها من حيّز النصوص الأغفال التي تشهد ازورارا عنها، في الوقت الذي تُستثمر النصوص والوثائق الأجنبية في كتابة تاريخنا. ليس في وُكدنا التنقّص من شيء، بل نريد التنبيه إلى ضرورة الموازنة بين الاهتبال بما هو لنا، وعدم اطّراح ما لغيرنا.

مفهوم النوازل الفقهية:

لن يقف الباحث على دلالة مفهوم النوازل في المعاجم العربيّة القديمة، فهي تقتصر على دلالة اللفظ اللغوية، فمثلا نقرأ في لسان العرب:"النازِلة: الشديدة تنزِل بالقوم، وجمعها النَّوازِل.. والنازِلة الشدَّة من شدائد الدهر تنزل بالناس"[1]. لكن النوازل من حيث هي مصطلح فقهي، وإن كانت تأ تلف مع اللفظ في كونها طارئة، إلا أنها تَمُتّ للمجال الفقهي خاصة، حيث تعني "الأحكام الصادرة عن الفقهاء في الوقائع الجزئية"[2] وتعني:"مشكلة عقائدية أو أخلاقية أو ذوقية يصطدم بها المسلم في حياته اليومية، فيحاول أن يجد لها حلاً يتلاءم وقيم المجتمع بناء على قواعد شرعية."[3] وفي تعريف آخر أنها:" تلك الحوادث والوقائع اليومية التي تنزل بالناس، فيتّجهون إلى الفقهاء للبحث عن الحلول الشرعية لها."[4] وحتى هذا المصطلح ليس محلّ اتفاق بين الفقهاء، حيث لا يطلق على جميع ما ينزل بالناس، وإنما تطلق اصطلاحات أخرى كالفتاوي والأجوبة والمسائل والأ سئلة والأحكام..

مجالات النوازل:

ارتبطت النوازل[5] في مختلِف اطوارها بحياة المسلم، وكان من سماتها الواقعية والتجدد والطابع المحلي، لأن النوازلي كان مقصودا من لدن المستفتي في ما تعوّده من أسئلة (مسائل العبادات والعقيدة والمعاملات المعروفة) وما لا (المستجدات التقنية والتجارية والعادات الطارئة..). لذلك كان على النوازلي مسايرة التطور العام للحياة اليومية، مطلعا على ماجرياتها، حتى إذا واجهته مسألة طارئة لم يتنكّب الجواب عنها فالفقيه النوازلي في ن ظر عوام السائلين وخاصتهم، هو الممتلك للمعرفة الدينية من وجه - وهذا غير كافٍ وهو المخوّ ل بتنزيلها على الواقع، باستنبا ط الحكم الشرعي فيها. ونركّز هنا على النوازل الواقعية، أي التي لها ارت باط بالواقع المعيش، بناء على قاعدة الإمام مالِك "أسأ ل عمّا يكون، ودَعْ ما لا يكون"، لا التي تهتبل بمسائل غيبية أو تبحث في علّة الأشياء وجوهرها، كما هو شأن بعض كتب النوازل التي عالجت قضايا الألوهية والخلق والوجود والأسماء والروح والنبوءة.. ونسوق هنا بعض الأمثلة:

نزول آدم من الجنة..

"سيدي أخبرني بكيفية نزول آدم من الجنة، هل رفعته الرياح أ و تولاالله أو وكّل به الملائكة، وهل رآه أحد في السماوات أم لا ؟ وهل نزل دفعة واحدة مع حواء أو نزل متفرقين ؟ (...)ن الله تبار ك وتعالى لما قال ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ علمنا أنه هبط هو ومن معه بأنفسهم، وعلى معراج ناسب ذواتهم.فإن آدم هنالك له ذات خفيفة نيرة على حكم ذوات أصحاب الرياضات.."[6]

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
أحمد السعيدي، النوازل الفقهية والعلوم الإنسانية: علم التاريخ مثالاً.-دورية كان التاريخية.-العدد السادس ؛ ديسمبر ٢٠٠٩. ص ١٧ – ٢١.
(www.h i st or ical kan.co.nr)

السرّ في تلاطم الأمواج..

" الحمدلله سيدي ما السر في تلاطم أ مواج البحر؟ هل ذلك عبادة منه أو لا؟ وأي خصوصية لمائه يرفعه السحاب منه فتمطر السماء به؟ والسلام. الجواب، والله الموفق للصواب: إن البحر لو سكن لمات من نتنه جميع حيوانات البحر، وتلاطم أمواجه يقوم مقام جريانه التي تزول رائحته، لأن شأن الماء الراكد التغيُّر كما هو مشاهَد، والقدرة الإلهية لا تستحيل أن يرفع السحاب لجاجا، ويمطره على الأ رض عذبا فراتا، لأن الحكماء يعالجون ماء البحر حتى يرجع عذبا كذلك، والله تعالى أعلم."[٧]

وقد كان بعض الفقهاء يأتون بالمسائل من عندهم، ويجيبون عنها من دون حدوثها، و "كان مالك لا يكاد يجيب، وكان أصحابه يحتالون أن يجيء رجل بالمسألة التي يحبّون أن يعلموها كأنها مسألة بلوى فيجيب فيها."[٨] وقد حصر أحد الباحثين مجالات النوازل في "الأحكام الاعتقادية، وفي الأحكام الأصولية، وفي الأحكام الفرعية التكليفية والوضعية."[٩]

مهما يكن من أمر، فقد استطاعت النوازل الفقهية الإحاطة بمختلف ماجريات الحياة اليومية، وتعددت منظورات الفقهاء إزاءها. من ثَم، اخترقت النوازل عالم السياسة والمرأة والمعاملات والعادات الاجتماعية، والعلاقة بالآخر النصراني.. أي أنها جلّت خبيئة المجتمع الإسلامي عامة، ومجتمع الغرب الإسلامي خاصة، بما فيه الأندلس والمغارب، "ومن ثم تكون كتب النوازل منجماً غنيا بمعلومات موازية يستفيد منها المؤرخ والاجتماعي وغيرهما"[١٠]

وهذه بعض مجالات النوازل الفقهية في الغرب الإسلامي:

- المجال الديني: ما له علاقة بالمذهب والعقيدة، وهو كثير جدا.
- المجال السياسي: البيعة، ولاية العهد، الفوضى وعدم استخلاف إمام، التحزب مع النصارى، الاستنصار بالنصارى على المسلمين، فرق الحكم، التعاهد مع النصارى..[١١]
- المجال الاقتصادي: العملة، سك النقود، الموازين الكيلية، الاسعار، الغلاء، البيوع مثل البيع بالثنيا[١٢]، الزكاة، السلف، العقار، احتكار السلع، التدليس، الربا، ظهور العيب في المبيع، التعامل بالشيك البنكي، انتشار البضائع الأجنبية كسكر القالب والشاي والقهوة والشمع والجبن والدجاج الروميين وكاغد الروم والصابون والحرير والملف والمكانات المحلاة بالذهب، ظهور التلغراف والتلفون وطاموبيل[١٣] والطائرة والفونوغراف..[١٤]
- المجال الاجتماعي: الكدّ والسعاية، النكاح وقضاياه، طعام المواسم والأعراس، اختلاط الرجال والنساء، التشبّه بالنصارى، لبس قلنسوة[١٥] النصارى (البرنيطة)، الاحتفال المولد النبوي، وضع اليهود، انتشار التبغ، ظهور بعض الطوائف الدينية[١٦].
- المجال التربوي: الإجارة على الإمامة، اشتراط المعلم أجرته، تعليم الولد، قواعد القراءة وعلومها، تعليم الأعزب، إعطاء المعلم من أحباس المسجد، مراجعة ألواح الصبيان لتصحيح الأخطاء، كتابة الجُنُب الألواح، ضرب المعلّم للصبيان..[١٧]
- المجال الأدبي والفني: حكم بعض الكتب والنصوص الأدبية (قصائد، روايات، مقالات، خطب..) حكم الصور والمجسّمات، حكم بعض المسلسلات كمسلسل الكارتون الياباني "بوكيمون Pokémon"[١٨]، والمسلسل التركي "نور"، والمسلسلات المكسيكية، حكم بعض الأغاني المسموعة والمرئية والأفلام السنمائية..
- المجال الطبي: الطّواعين والأوبئة والأمراض، الحجْر الصحّي (الكرنتينة)، الحجامة، دواء النصارى، التداوي بالحرام، الموت "الرحيم"، التبرع بالأعضاء، الأبحاث على الخلايا الجذعية، الاستنساخ في الإنسان والحيوان والنبات، البصمة الوراثية في إثبات النسب والجرائم، العلاج الجيني، التحكّم في نوع الجنين، التبرع بالأعضاء..
- المجالات العلمية الأخرى[١٩].
- المجال التاريخي: وسنتطرق إليه قريبا.

النوازل وأهميتها للتاريخ العام:

من المعروف أن التاريخ داخل في عِداد العلوم الإنسانية، بتخصصاته الدقيقة؛ نتحدث هنا عن المفهوم الحديث للتاريخ، على عكس المفهوم التقليدي الذي يعني كتابة الوفيات والتراجم والطبقات والفهارس.. يقول عبد الله العروي: "إنّ القارئ غير راض عمّا يجده اليوم في السوق من الكتب حول تاريخ المغرب. إذا رجع إلى المؤلفات القديمة وجدها مليئة بالحروب والثورات والخرافات وأشعار المناسبات. إذا التفت إلى الرسائل الجامعية تاهَ في نظريات مبهمة عن المنهج أو في تحليلات دقيقة حول منطقة أو أسرة أو تنظيمة اجتماعية. وإذا التجأ إلى كتب الأجانب رآها تزخر بأحكام استعمارية تعكّر عليه صفو يومه. فيسخط ويقول: أين مؤرخونا؟ لماذا لا يعيدون كتابة تاريخنا؟"[٢٠]

بمعنى أن إعادة كتابة هذا التاريخ صارت ملحّة جدا اليوم، لكن هل كُتب هذا التاريخ أصلا لكي يُعاد التفكير في تلك الصيغة الماضية التي تبدو للمؤرخ المعاصر وكأنها مُسَوَّدَة. فالتفكير في البدء من جديد يقتضي البحث عن النصوص الأغفال "التي راجت ضمن الثقافة الشفوية بصفة عامة، أو بصفة خاصة ضمن حلقات التدريس في مدة معينة ثم انقطعت الصلة بينها وبين الناس."[٢١] ألم تغفل –ومازالت كذلك- النوازل وغيرها من النصوص الدينية والعدلية والقضائية والحِسْبِيّة والحُبُسِيَّة والمقيدات والكنانيش ومستخلصات المراسي..؟ لقد تنبّه المؤرخ المعاصر لهذه النصوص التي "تكتسي في ميدان الدراسات التاريخية بُعداً هاماً يتجلى في أنها تعكس من خلال السؤال والجواب أوضاعاً تاريخية دقيقة من جهة، وتتميز بعفويتها وبراءتها من جهة ثانية لأنها لم تصدر من سلطة رسمية، ولم تتلوّن بلون إيديولوجي أو سياسي. فابتعاد المفتي عن السلطة الحاكمة وفّر مناخاً من الحرية لفكره دون تدخل سافر من الجهات الرسمية، مما يجعل النازلة نصاً تاريخياً محايداً يفوق أحياناً قيمة النص التاريخي نفسه."[٢٢]

إن الإشكال المنهجي المتعلق باستثمار هذه النصوص النوازلية من عدمه تُجُووِزَ اليوم، مع المستجدات في مجال الكتابة التاريخية. بمعنى أن حظّ النوازل فيها ذو بال. لكن كيف يمكن استثمار نصوص النوازل وغالبها مخطوط، وبعض نسخه نادرة أو مبتورة أو مفقودة؟

لجأ بعض المؤرخين المغاربة إلى تحقيق هذه النصوص[٢٣] ونشرها، مما أدخل المؤرخ –راضيا أو مرغما- إلى دائرة الفقه، ولعل الرّهان هو -ما يسمّيه العروي- "توسيع مفهوم الوثيقة"[٢٤]. وصارت نصوص نوازلية متاحة للباحثين من مختلِف التخصصات العلمية، إذ

إن "مهمة الدارس الأولى هي البحث عن الوثائق. مادام هناك تاريخ ومؤرخون فالبحث عن الوثائق نشاط متواصل."[٢٥]

نخلص هنا إلى أن النوازل الفقهية خاصة، مهمة في الكتابة التاريخية اليوم، وهذا تحصيل حاصل. لكن أين تتجلى خدمتها لهذا التخصص الواقع ضمن العلوم الإنسانية؟

يقول أحد المؤرخين:"اتجهت عناية الباحثين إلى استغلال ما تحتويه كتب "الفقه" من معطيات في الدراسات التاريخية. تلك الكتب التي ظلت لمدة طويلة لا تحظى باهتمامهم، على اعتبار أنها "مصادر جافة"؛ بينما أصبحت تصنف حاليا ضمن "المصادر الدفينة" للتاريخ الإسلامي، نظرا لارتباطها بالواقع الاجتماعي والسياسي والديني والثقافي للمجتمعات الإسلامية، وباعتبارها تعالج قضايا واقعية، وتعكس مواقف الفقهاء من مشاكل عصرهم."[٢٦]

بناء على ما سلف، انبنت الكتابة التاريخية اليوم على التخصص في داخلها، لا نعني هنا تلك التقسيمات المعروفة للتواريخ (قديم ووسيط وحديث ومعاصر)، ولكن نعني التواريخ الآتية قريبا، إذ "تعد مصنفات النوازل والفتاوي الفقهية بالإضافة إلى قيمتها الفقهية البحتة من المصادر الأصلية القيمة، لما تتضمنه من مادة غنية في مجال الدراسات التاريخية والحضارية"[٢٧]، وسنحاول تبيان رفد النوازل لكل تخصص تاريخي مع التمثيل لذلك:

١. التاريخ الديني:

انتشار المذاهب (المذهب المالكي في الغرب الإسلامي) والفِرَق الدينية (الخوارج، الشيعة، الصفرية، الاباضية..) وبعض الطوائف الغريبة (العكاكزة مثالا)، درجة التدين في الحواضر والبوادي، حكم المرتد والزنديق، أخبار التصوف والمتصوفة والأولياء والصالحين ونصوص الكرامات والمرائي والمنامات والبدع.. وتوجد أمثلة كثيرة على الممارسة الدينية في مجتمع المغارب، والأسئلة الحافّة بها. وسنأتي بمثالين لتبيان قيمة المنجز النوازلي في هذا المجال:

من ينسب إلى الصلاح..

"سيدي ما ترون في رجل ينسب إلى الصلاح ويزعم أمورا لا يدعيها عاقل، يقول نرى جبريل، ويقول لي ونسمع منه، ونرى ميكائيل حين يكيل الماء، ويقول للظلّمة من يشتري مني شياخته نشيخه ونعزل مضاده، ويتحدث في حمل الحوامل، ويقول فلانة يتزيد لها ذكر، وفلانة ذات أنثى، ويقول لمن رآه مريضا خذ هذه العشبة تداوى بها، فإنها كما أعطانيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى غير ذلك."[٢٨]

من أظهر الإسلام وهو نصراني..

"وسئل ابن رشد عن رجل كان على دين النصرانية فأسلم وأظهر الإسلام، وكثر سماع ذلك عنه، ورفع إلى السلطان من أمره ما أوجب الكشف عن حاله. ففُتِّشت داره فأُلفِيَ فيها بيت شبه الكنيسة فيه حنيَّة إلى جهة الشرق، وهي أشبه من سعة البيت، وفي الحنية دكان وسرير، وفيها قنديل معلق وآثار كثيرة ألصقت فيها شموع.. وشهد شاهد ممن يعرف أحوال النصارى وأمور شرعهم بأن الشموع المذكورة ما يتقرَّب بها النصارى ويهدونها إلى قسيسهم ليوقدوها في متعبَّدِهم.."[٢٩]

تركيب: يتعرض النصّان السالفان على التوالي لنازلتي الصلاح المشتبَه، وإظهار النصراني الإسلام، ولا يهمنا هنا الجواب، بقدر ما نهتبل بالنازلة في حد ذاتها. حيث نخلص إلى المنظور الشخصي والعملي للدين، الأول مسلم يظهر الصلاح ويدعي الإتيان بالمغيبات والخوارق، فيما الثاني نصراني يمارس دينه مُظهرا إسلامه، وفي الحالين معا، تنزع النازلة إلى تبريز حكم الشرع فيها، بمعنى أن الضرورة والمخالفة هما علّة النظر الشرعي هنا، ولولاهما لما عُدَّ ذانك السلوكان مما يُسأل عنه ويُطلب الحكم فيه. من هنا يتبين تأرخ النازلتين للإسلام في ممارسته اليومية، وانطواؤهما على مظهر من التاريخ الديني في فترة معينة.

٢. التاريخ الاجتماعي:

يقول إبراهيم القادري:"لا سبيل لإنكار موقع التاريخ الاجتماعي في أي دراسة تطمح إلى الإلمام بالعناصر الفاعلة في حركة التاريخ، وريادته في تأسيس تاريخ شمولي يتجاوز مستوى التاريخ التقريري الحَدَثين ويسعى إلى نسج خيوط منظور جديد يتوخى تحرير الكتابة التاريخية من طابعها الرسمي."[٣٠]

وقد تعددت مظاهر هذا التاريخ في نوازل الغرب الإسلامي، لأن النوازل ألصق بحياة الناس الاجتماعية والاقتصادية، وأكثرها ارتبط بالحياة اليومية وتفاصيلها. كما أن النوازل أ لقت الضوء على القلت المهمّشة والمهملة تاريخيا (المتنبئون والسحرة والزنادقة والبؤساء والسفلة والعوام والمتسولون والعبيد..) ولولاها لما قيّض للمؤرخين مراكمة كتابة تاريخية اجتماعية. صحيح أن غاية النوازلي دينية أساسا، أي تبريز حكم الشرع في الحادث، لكنه يسهم بقدر ذي بال في تجلية الشروط المحيطة بالنازلة، ومنها الشروط الاجتماعية. وسنمثل لما سلف بما يأتي:

من دعا رجلا بلقب قبيح..

"من دعا رجلا بلقب غلب عليه، وهو لقب قبيح. وذلك اللقب هو الغالب عليه. وكيف إن كان الملقّب قد أباح للناس؟ هل ذلك جرحة فيمن دعاه بذلك؟"[٣١]

إسقاط الجنين..

"إذا اتفق الزوج والزوجة على إسقاط الجنين قبل أربعة أشهرن هل يسوغ ذلك أم لا؟ وإذا قلتم بجوازه، هل يجوز للزوجة وإن لم يوافق الزوج أم لا؟ وإذا قلتم بالمنع وفعلت ذلك المرأة وأسقطته، هل تلزمها الغُرة [الدية] أ م لا؟"[٣٢]

الزواج بماشطة..

"وسئل عمن تزوج ماشطة، واشترطت عليه عند عقد النكاح أن لا يمنعها من صنعتها وقبل ذلك منها، ثم أراد منعها من ذلك."[٣٣]

تركيب: ما استلفت نظرنا هو كثرة النوازل الاجتماعية وهيمنتها على غيرها، بحكم أن الناس يسألون عن حكم اليومي والمعيش أكثر من أي شيء آخر. لذلك نرى في النصوص الثلاثة نزوعا إلى تحكيم النوازلي في أمور الزواج والإنجاب وبعض العادات (التلقيب). نقف عند نازلة الإجهاض بما هي ممارسة قديمة لا حادثة، وكذا مطالبة الزوجة بحقّها في العمل، بما هي نازلة ملحّة اليوم، وتبدو هذه النوازل وكأنها بنت ساعتها، وليست ماضية.

٣. التاريخ الاقتصادي:

اخترقت النوازل عالم التجارة والمال والاقتصاد، وسيقف المؤرخ الاقتصادي على نوازل كثيرة في هذا المجال مما ذكرناه آنفا. لكننا سنقتصر على ظاهرة انتشار البضائع الأجنبية في المغرب خصوصا، كسكّر القالب والشاي والقهوة والشمع والجبن

والـدجاج الـروميين وكاغـد الـروم والصـابون والحريـر والمَلـف والمكّانات المحلاّة بالذهب ، ظهور التلغراف والتلفون وطاموبيل والفونوغراف والفوتوغراف.. وسنورد بعض النصوص النوازلية في ذلك:

حليّة الصابون..

"فإذا أجازوا تناول مأكولات أهل الذمة ، فإن الصابون أحق حالا ، إذ ليس مما يؤكل. فالصابون يجعل في ثوب ثم يغسل الثوب غسلا ناعما حتى لا يبقى له أثر ، والصابون يحتاج إليه الغني والفقير والصغير والكبير."[٣٤]

الورق الرومي..

"الورق الرومي مما أدخل الكافر يده فيه مبلولة حال كونها لم تعلم نجاستها ، وكل ما تناولته يد الكافر ولم تعلم نجاستها مختلف في طهارته ونجاسته."[٣٥]

ماكينة الكلام المسماة "فونوغراف"..

"ولمـا فـي هـذا السـؤال مـن تشـويق بواسـطة الأوصـاف الميكانيكيـة ، وأن المـتكلم شـخص يميـزه المسـتمع ويعرفـه باسـمه ، ويستغني بها عن سماع ذوي الطرب والألحان لحكايتها الصوت بمده وقصره ، وتكسيره وتطريبه ، وإخفائه وغنّته.. فيكون الجواب بعد هذا: إلحاق الماكنة بآلات اللهو المختلفة في إباحة سماعها ، لأن العلة في حرمة آلة اللهو لا يعلق بسماع الآلة لذاتها ، إنما تنشأ العلة من اللهو والنظر إلى ما لا يحلّ النظر إليه والتلذذ بصور المطرب.."[٣٦]

تركيب: الصـابون والـورق الرومـي وفونـوغراف وغيرهـا مـن المستجدات الاقتصادية في المغرب المعاصر ، مجرّد تمثيل للعلاقة بالآخر التي يكون فيها استحضار المكوّن الديني آكد. ذلك أن المجتمع المغربي أصابته الثورة الاقتصادية الأوربية باختلال الأحوال ، خصوصا بين الفقهاء النوازليين الذين ترجّحوا بين الإفتاء بالحلية أو الكراهة أو الحرمة. وربما أن هؤلاء الفقهاء لم يحسوا بقوة الآخر إلا حين التعرض لهذه المستجدات التقنية والتجارية ، وفي هذا يقول النوازلي محمد بن عبد الكبير الكتاني:" فإنالله على ضعف إيماننا حتى تركنا الشعائر الإسلامية ، وأقمنا الوظائف الرومية. فكيف لا يغلبون علينا وقد هجرنا سُـنن نبيّنـا ، وعمّرنـا أوقاتنـا بسـننهم وآلاتهـم وبضـائعهم وزخـارفهم ومحـدثاتهم التـي تشـغل القلـوب والأبصـار ؟"[٣٧] كمـا يكـون معاينتها والوقوف عليها في عهدة الفقيه النوازلي لإصدار فتواه.

مهما يكن من أمر ، يبدو التصدي لقوة أوربا الاقتصادية من لدن الفقهاء أمرا إلى إدبار في ظل غزوها للمجتمع من أعاليه إلى أسافله ، وعموم البلوى بها عموما كبيرا. من هنا تتبين قيمة هذه النوازل المخطوطة في غالبها ، إذ لا يمكن كتابة تاريخ اقتصادي لبلد بلد من دون استثمارها ، صحيح أن غاية النوازلي دينية صرف ، لكنه بمعالجته تلك أرّخ انتشار الأنماط البدئية للبضائع الأجنبية في المجتمع ، وهو أمر ذو بال.

٤. تاريخ العقليات:

حين نطلق اصطلاح "العقلية" فذلك في اتصال بالتاريخ أكثر من غيره ، نقصد "تاريخ العقليات ، أي تاريخ المواقف الجماعية."[٣٨] بمعنى أننا نرى في الموقف الفقهي موقفا جماعيا لنخبة جلها أو كلها ، كانت متصلة بالحداثة نظرا وعملا ومعاينة وإفتاءا واتفاقا تاما (القول بالحلية) أو جزئيا (القول بالكراهة) ، أي إن موقفا جماعيا تحقّقَ تاريخيا ، وإن لم يكن متحققا فلا داعي للتحدث عن تاريخ عقلية في مجتمع ما أو نخبة ما أو عند جماعية بشرية ما. هذا يسوّغ لنا النظر إلى المستجدات الأجنبية ومظاهرها من وجهة هذا التخصص ، حيث "يعالج تاريخ العقليات مستوى أساسيا: اليومي والآلي ، أي ما ينفلت من الأفراد ويكشف عن المضمون اللاشخصي لتفكيرهم."[٣٩] والقول بهذا لا يعني الانتقاص من هذه النخبة ، فالنخبة العالمة بالمغرب كغيره تضم كثرة من علماء الدين واللغة والعلوم العقلية التجريبية ، فلا يمكن بحال وسمها بمقاومة "**الرفاهية**" أو "**الحداثة**".. ولكن لابد من وضعها في سياق "العقلية" ذات التعلق الوطيد بالتراث الفقهي والسياسي والمذهبي. من هنا كان النظر إلى المستجدات من وجهة دينية صرف: تبريز حكم الدين فيها قبل استعمالها ، ومن ثم "كان المدخل الذي مارس فيه الفقهاء مناقشاتهم وتأويلاتهم حول البضائع التجارية.. هو مدخل: **الحلال والحرام** ، فكانت جلّ المواد التجارية الأجنبية تلقى معارضة العلماء كلما وجدوا إلى إثبات حرمتها سبيلا."[٤٠]

تُرى هل كان النوازليون متواضعين على عقلية موحدة في نظرهم لصنائع الآخر "الكافر"؟ يمكن في النصوص السالفة الخلوص إلى انفتاح بعض النوازليين من نخبة العلماء على المستجدات وإفتائهم بحليتها ، ورفع الحرج عن استعمالها (تجويز الصابون وفونوغراف وزيت النصارى وسكر القالب..) ، وكان بعضهم متأثرا بهذه المستجدات كالمؤرخ الناصري صاحب "الاستقصا" ، ومحمد الحجوي[٤١] ، ومحمد العياشي سكيرج ، الذي ألّف رسالة "طرفة الأدباء ، بإباحة ضوء **الكهرباء**." ونخلص مما سلف إلى أمرين:

أ. العلاقة بالآخر وفق ثنائية "دار الإسلام" و "دار الحرب".

ب. سيادة موقف جماعي متحفّظ على الحداثة في أوساط النخبة العلمية الفقهية المغربية يمكن وصفه بالـ "عقلية" الجماعية ، كما تسود "عقلية" جماعية أخرى غير متحفظة في أوساط الطبقة الوسطى والتجّار والموظفين المخزنيين والعامة..

خلاصات: من خلال ما سلف ، يمكننا الخلوص إلى أن:

- النوازل مهمة جدا للعلوم الإنسانية كلها ، ومن بينها التاريخ ، وهذا تحصيل حاصل.
- النـوازل تحبـل بالمـدهش والطريـف فـي مجتمعاتنـا القديمـة والحديثة ، وتجلّي قدرة النوازلي على مسايرة التطور السريع للحياة اليومية.
- النوازل تفرض على الباحث في التاريخ الانفتاح عليها ، فقد مضى ذلك الزمن الذي يُستسقى فيه التاريخ من المصادر التقليدية فقط.
- النوازل ليست حُبُساً على المتخصصين بها من الفقهاء والأصوليين والمهتمين بعلوم الدين عامة ، وإنما تعدُّ نصوصا منفتحة على عدد من التخصصات بما فيها التاريخ.
- النوازل استطاعت تصوير الحياة العامة للمسلم المتعدد في الزمان والمكان..
- النوازل في غالبها مخطوطة ومركونة في الخزائن العامة والخاصة ، لـذلك فتحقيقُهـا ونشـرُها ديـن فـي عهـدة البـاحثين مـن مختلـف التخصصات.

الهوامش

[1]- لسان العرب: نزل.
[2]- محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي ، عمر الجيدي ، ص: ٩٤ ، الدار البيضاء ، ١٩٨٧.
[3]- فاس وباديتها ، محمد مزين ، ص: ١\ ٢٥، منشورات كلية الآ داب بالرباط ، ١٩٨٦.
[4]- فقه النوازل في سوس ، الحسن العبادي ، ص. ٥٣ ، منشورات كلية الشريعة بأكادير ، ١٩٩٩.
[5]- للتوسع ينظر:"النوازل والمجتمع" ، عمر بنميرة ، رسالة جامعية مرقونة بكلية الآداب بالرباط ، ١٩٨٩ ، و"فقه النوازل بالأندلس تاريخا ومنهجا ، رسالة جامعية بكلية الآداب جامعة ابن مسيك بالدار البيضاء ، ٢٠٠١ ، و"حصيلة استعمال كتب النوازل الفقهية في الكتابة التاريخية المغربية" ، محمد مزين ، ضمن كتاب "البحث في تاريخ المغرب حصيلة وتقويم" ، منشورات كلية الآداب بالرباط ، ١٩٨٩ ، و"فقه النوازل في سوس" ، الحسن العبادي ، منشورات كلية الشريعة بأكادير ، ١٩٩٩ ، و"النوازل الفقهية والمجتمع" ، محمد فتحة ، منشورات كلية الآداب بالدار البيضاء ، ١٩٩٩ ، و"النوازل الفقهية وأثرها في الفتوى والاجتهاد" ، أعمال ندوة ، منشورات كلية الآداب بالدار البيضاء ، ٢٠٠١..
[6]- الجواهر القدوسية في الفتوحات السوسية ، المنسوب للحسن التمكّدشتي ، ص: ٣٧-٣٨ ، مخطوط خاص.
[7]- الجواهر القدوسية: ١١-١٢.
[8]- ترتيب المدارك: ١\١٩١.
[9]- الفتيا ومناهج الإفتاء ، محمد سليمان الأشقر ، ص: ٢٤ ، الكويت ، ١٩٧٦.
١٠- نظرات في النوازل الفقهية ، محمد حجي ، ص: ٥٩ ، الدار البيضاء ، ١٩٩٩.
١١- النوازل السياسية في المغرب الحديث ، محمد زنيبر ، ص: ١٢٧ ، ضمن "التاريخ وأدب النوازل".
١٢- المقصود به استرداد البائع مِلْكَه إذا حضر الثمن.
١٣- يجيب المأمون الشنجيطي في كتابه "الأسئلة الناضرة ، عن الدابّة المنتظرة" عن سؤال حول الدابة الوارد ذكرها في القرآن الكريم بوصفها من علامات الساعة. وقد ذكر بأن السيارة والطائرة ونحوهما من الحركات السريعة هي الدابة المقصودة ، وردّ عليه إدريس الوزاني في كتابه "الرسالة الدابّة ، عما ورد في شأن الدابّة".
١٤- التجارة المغربية في القرن التاسع عشر ، عمر أفا ، ص: ١٧٧ ، الرباط ، ٢٠٠٦.
١٥- ينظر "الرد على أجوبة الحيارى في حكم قلنسوة النصارى" ، لسليمان الجزائري ، مخطوط بالخزانة العامة بتطوان ، رقم ٢٣٦ م ، وأيضا: "الرد على من جوّز لبس قلنسوة النصارى" ، للشيخ عليش ، تح: عبد المجيد جمعة ، الجزائر ، ٢٠٠٨.
١٦ - ينظر كتاب "الإسلام السري في المغرب العربي" ، إبراهيم القادري بوتشيش ، بيروت ، ١٩٩٥.
١٧- نوازل تربوية ، محمد ابو طالب ، ص: ٩٣ ، ضمن "التاريخ وأدب النوازل".
١٨- كثرت الفتاوي حول هذا المسلسل الكارتوني زمن عرضه ، ومنها فتوى تقول:"وبناء على ما ذكر فينبغي منع هذا المسلسل وأشباهه من المسلسلات التي تتعارض مع عقيدتنا وأخلاقنا وقيمنا وما أكثرها.." ينظر نشرة المجلس العلمي بتارودانت ، التابع لوزارة الأوقاف بالمغرب ، ص. ١٤٥-١٤٧.
١٩- عبّر أحمد زويل (جائزة نوبل في الكيمياء عام ١٩٩٩) عن ضرورة منع الإفتاء في القضايا العلمية ، وهو ما أثار اعتراض علماء الشريعة ، وذلك في مؤتمر "الطب والبشر في القرن الحادي والعشرين" ، المنعقد بمدينة شرم الشيخ في ٧ فبراير ٢٠٠٩.
٢٠- مجمل تاريخ المغرب: ١١\١ ، بيروت ، ١٩٩٦.
٢١- من أجل تلق نسقي ، محمد مفتاح ، ص: ٤٦ ، ضمن "نظرية التلقي" ، منشورات كلية الآداب بالرباط ، ١٩٩٣.
٢٢- النوازل الفقهية وكتب المناقب والعقود العدلية ، مصادر هامة لدراسة تاريخ الفئات العامة بالغرب الإسلامي ، إبراهيم القادري ، ص: ٢٤٧ ، مجلة التاريخ العربي (تصدر بالمغرب) ، ع ٢٢ ، ٢٠٠٢.

٢٣- منها: (المعيار المعرب" للونشريسي ، نشر: محمد حجي ، الرباط ، ١٩٨١) ، و(البيان والتحصيل لابن رشد ، تح: محمد حجي ، بيروت ، ١٩٨٤) ، و(مواهب ذي الجلال في نوازل البلاد السائبة والجبال ، تح: أحمد التوفيق ، بيروت ، ١٩٩٧) ، و(أجوبة ابن ورد الأندلسي ، تح: محمد الشريف ، الرباط ، ٢٠٠٨)..
٢٤- مجمل تاريخ المغرب: ١\١٥.
٢٥- مجمل تاريخ المغرب: ١\٢١.
٢٦- أجوبة ابن ورد الأندلسي: ٤١-٤٢.
٢٧- جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي ، كمال السيد أبو مصطفى ، ص: ٨ ، الإسكندرية ، ١٩٩٦.
٢٨- المعيار المعرب: ١\٣٨٧.
٢٩- المعيار المعرب: ٢\٣٤٩.
٣٠- مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس ، إبراهيم القادري ، ص: ٥ ، بيروت ، ١٩٩٧.
٣١- أجوبة ابن ورد الأندلسي: ١٠٦.
٣٢- المعيار: ٣\٣٥٣.
٣٣- المعيار: ٣\٢٧٨.
٣٤- التجارة المغربية في القرن التاسع عشر: ١٩٣.
٣٥- حكم تجارة صابون الشرق وشمع البوجي وصندوق النار المجلوب ذلك من بلاد الأعادي الكفار: ٦ ، مخطوط الخزانة الصبيحية ، سلا ، المغرب.
٣٦- حكم سماع ماكينة الكلام والغناء المسماة فونوغراف ، ابن سودة أحمد العابد ، مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط رقم ١٨٨٩.
٣٧- مظاهر يقظة المغرب الحديث ، محمد المنوني ، ٢/ ٣٧٤ بيرو ت ،١٩٨٥.
٣٨- من أجل تاريخ إشكالي ، محمد حبيدة ، ص: ١٤٩ ، الدار البيضاء ، ٢٠٠٤.
٣٩- من أجل تاريخ إشكالي: ١٢٣.
٤٠- التجارة المغربية: ١٧٩.
٤١- ينظر "مثقفون يتأثرون بالنهضة الغربية الحديثة" في "مظاهر يقظة المغرب الحديث": ١/ ٣٢١-٣٢٥.

الدكتور أحمد السعيدي في سطور:

- كاتب وباحث مغربي من مواليد سنة ١٩٧٧.
- حصل على درجة الماجستير من كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة محمد الخامس ، الرباط ، ٢٠٠٤.
- حصل على درجة الدكتوراه من كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة عبد المالك السعدي ، تطوان ، المغرب. ٢٠٠٩.
- له عدة مقالات ودراسات منشورة في مجلات وصحف مغربية وعربية.
- شارك في عدد من الندوات والمؤتمرات المغربية والدولية.
- عضو في عدد من الجمعيات العلمية الأكاديمية.